

ألمانيا والحركة العربية في الحربين العالميتين الأولى والثانية

عبد الرؤوف سنو

سأقارب الموضوع من خلال مرحلتين اثنتين: تتناول الأولى الحرب العالمية الأولى، والثانية الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وصولاً إلى العام 1945. وما نقصده بالحركة العربية، هو النخب التي سعت خلال الحربين إلى إقامة دولة عربية مستقلة عن العثمانيين أو متحررة من الاستعمار. ونحن نطرح الفرضية، بأن الحركة العربية راهنت في المرحلتين على مساعدة ألمانيا لها للتخلص على التوالي من الحكم العثماني، ومن الانتداب أو الاحتلال الأجنبي، فكانت الكارثة أن ألمانيا كانت تعمل من أجل مصالحها، فيما خسر العرب الرهان عليها في تحقيق أمانهم. إشارة إلى أنه لا يمكن أن نفصل علاقة ألمانيا بالدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى عن علاقتها بالحركة العربية التي كانت بلدانها خاضعة للحكم العثماني.

سياسة ألمانيا الإسلامية تجاه الدولة العثمانية في عصر الإمبراطور وليم الثاني

تعود سياسة ألمانيا الإسلامية تجاه الدولة العثمانية إلى عصر الإمبراطور وليم الثاني، الذي عمل على استقطاب الإسلام العثماني في مشاريع بلاده القومية ضد دول الاستعمار التقليدية. وجاء التعبير عن ذلك بسياسة الحفاظ على السلطنة في وجه مشاريع أوروبية لتقسيمها، وكذلك، بمصطلح "الزحف نحو الشرق" الذي كان يختصر كل مصالح ألمانيا الاقتصادية في ولايات السلطنة، من تجارة واستثمارات وثقافة وتسليح جيشها. وفي العامين 1898 و1905، زار الإمبراطور الألماني على التوالي الدولة العثمانية وسورية ولبنان، والمغرب، حيث أطلق من هناك تصريحات مدوية اعتبرت تحالفاً بين ألمانيا والإسلام.

العرب وألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى: جهاد إسلامي صنع في ألمانيا؟

بلغت سياسة ألمانيا الإسلامية ذروتها في الحرب العالمية الأولى عبر وقوفها وراء إعلان السلطان العثماني "الجهاد المقدس" ضد دول الوفاق الودي. وكان لافتاً توجيه الجهاد ضد دول مسيحية واستثناء أخرى هي حليفة للعثمانيين. وفي الوقت نفسه، وجد الإسلاميون وأنصار الجامعة الإسلامية وعدد من القوميين العرب أنفسهم في معسكر ألمانيا حليفة الدولة العثمانية. وهذا يعود في الأساس إلى عدم توسلها سياسة استعمارية مباشرة تجاه ممتلكاتها، وهو ما أوقع قيادات الحركة العربية في إشكالية صعبة حول أفضل السبل لتحقيق الاستقلال: التعاون مع ألمانيا أم مع عدوتها بريطانيا. فمال عدد من نخبها إلى ألمانيا على أمل أن تكون المنقذ للدولة العثمانية وللغرب من دول الوفاق، وأن تؤدي ألمانيا بعد الحرب دوراً في إبراز شخصية العرب القومية، مع الإبقاء في الوقت نفسه على الدولة العثمانية مظلة تحمي البلاد العربية. كما انحاز العلماء الشيعة في العراق في مطلع الحرب إلى جانب ألمانيا. في المقابل، انحاز الشريف حسين بن علي وقوميون عرب إلى جانب بريطانيا، بعدما فشلت مفاوضات الشريف مع الألمان خلال

العامين 1914 و1915 للتحالف معهم. فأعلن الشريف حسين في حزيران 1916 الجهاد ضد العثمانيين ولمصلحة البريطانيين. فترتب على ذلك ظهور ثلاثة للجهاد لأول مرة في التاريخ الإسلامي: جهادان عثماني وشيوعي عراقي لمصلحة ألمانيا، و جهاد عربي لمصلحة بريطانيا.

الحركة العربية في مخططات ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى

لا يمكن في الواقع الحديث عن الحركة العربية خلال الحربين العالميتين، من دون الحديث عن المستشرق الألماني ماكس فون أوبنهايم، الدبلوماسي وعالم الآثار، الذي عرف الشرق العربي وقياداته ومفكره وخبرهم، وعمل على جعلهم أهم أسلحة بلاده في الحرب. فأسس في برلين في مطلع الحرب "وكالة أخبار الشرق" (Die Nachrichtenstelle für den Orient) التي افتتحت لها مراكز في مدن عثمانية وعربية للإشراف على الدعاية التي خاطبت المسلمين والعرب بأسلوب تحريضي عنيف، مركزة على النهب الذي تعرضوا له من جراء دول الاستعمار. حتى أن الدعاية الألمانية، لم تتورع عن بث الشائعات عن اعتناق الإمبراطور وليم الثاني الإسلام لكسب المسلمين والعرب.

يعتبر شكيب أرسلان، والشيخ عبد العزيز جاويش، ومحمد فريد ومحمد فهمي، وعباس حلمي الثاني، ومنصور رفعت، ومن أبرز الشخصيات العربية التي عملت مع ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، اعتقاداً منها بسياستها الإسلامية المعلنة وتحالفها مع الدولة العثمانية.

وكغيره من الوطنيين العرب، مال أرسلان إلى ألمانيا، بسبب كراهيته للبريطانيين والفرنسيين. ورأى أنها لم تمارس سياسة استعمارية تجاه البلدان العربية، وبإمكان العرب والمسلمين التحرر من الاستعمار بوساطة دعمها. فدعا الإسلام أن يكون صديقاً لألمانيا التي تتصدى للساعين إلى الإضرار به. وقال: "إنه من الواضح أن صديق الإسلام هو الذي يكون عدواً للذي يضره بالإسلام. وأي عدو لبريطانيا وفرنسا في الوقت الراهن (تساءل أرسلان) غير الدولة الألمانية". لكن أرسلان، أعترف من ناحية أخرى بعدم وجود صداقة بين شعبين من دون مصالح مشتركة. وخلال زيارته إلى برلين في العام 1917، تحدث أرسلان مع المسؤولين حول تحويل الدولة العثمانية بعد الحرب إلى فدراليات وأن تشكل سورية فدرالية يقوم الألمان بدعمها اقتصادياً. ولدعم ألمانيا، تولى أرسلان تحرير جريدة "الشرق" الدمشقية لشهور عدة، وكتب الافتتاحيات فيها.

وفي مصر، كان عبد العزيز جاويش إسلامياً متشدداً تجاه الاستعمار أكثر منه وطنياً، رأى في بريطانيا كلّ بلاءٍ أصاب مصر والعالم الإسلامي. آمن بحق مصر في الاستقلال، وبوحدة العالم الإسلامي ممثلة بالدولة العثمانية. وعندما اندلعت الحرب، عمل مع غيره من الوطنيين المصريين على تقديم النصح للخبراء الألمان فيما يتعلق بالدعاية الألمانية في العالم الإسلامي واستقطاب العرب والمسلمين ضد دول الوفاق. وذكر المستشرق هارتمن، أن جاويش كان ينظر إلى ألمانيا على أنها شر لا بد منه، لأن العرب والمسلمين، تبعاً لرأيه، هم ضعفاء ويحتاجونها من أجل قضاياهم. بالإضافة الى ذلك، شارك جاويش في إصدار مجلات دعائية ألمانية. وكتب في مقال له: "نحن لا نستطيع أن نختار شعباً مناسباً إلا الألمان، لأن أصدقاءهم هم أصدقاؤنا وأعداءهم هم أعداء المسلمين". وأضاف: "إن الألمان والمسلمين يتمان بعضهم البعض".

ومن ناحية أخرى، كان موقف الحزب الوطني المصري بشكل عام من الحرب الكونية هو الموقف الذي أرساه سابقاً زعيمه مصطفى كامل والقاضي باستغلال الظروف الدولية

وتضارب المصالح بين الدول الإمبريالية في المسألة الشرقية، من أجل تحرير مصر من الاحتلال البريطاني وضمان عودتها مجدداً، لأسباب إستراتيجية، إلى حظيرة الدولة العثمانية، شرط إبراز شخصيتها الوطنية. وعشية الحرب العالمية الأولى وضع مصطفى كامل الحكومة الألمانية في إشكالية صعبة كاشفاً عن تلاعبها بالإسلام، فقال إذا كانت ألمانيا تدعي حقيقة أنها صديقة الإسلام، فعليها أن تثبت ذلك بتحرير مصر من البريطانيين.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، حصل تقارب بين أعضاء الحزب الوطني وبين الخديوي عباس حلمي الثاني يجمعهما معاً عداؤهما المشترك للبريطانيين ومصصلحة الأخير في استعادة منصبه السابق. واعتقد الوطنيون المصريون أن تعاوناً في ما بينهم وبين العثمانيين والخديوي عباس حلمي، يمكن أن يجبر البريطانيين على التخلي عن مصر. لذا، انحاز رجال الحزب الوطني إلى جانب الدولة العثمانية وألمانيا، مع إبداء الحذر من سياسة الدولتين تجاه مصالح مصر الوطنية في حال انتصرت دول الوسط في الحرب. فالدولة العثمانية، كانت تسعى إلى إعادة سيطرتها على مصر بموافقة ألمانيا، فيما كانت الأخيرة تسعى إلى استغلال الحركة الوطنية المصرية المعارضة للاحتلال البريطاني من أجل تحقيق أهدافها من الحرب. من هنا، وصل زعيما الحزب الوطني، محمد فريد ومحمد فهمي، إلى القناعة بأن الألمان لا يقدمون إجابات واضحة حول مستقبل مصر. رغم ذلك، استطاعت الدعاية الألمانية أن تستفيد من قلمهما ضد بريطانيا، وفي التحضير لحملة الفاشلة على مصر خلال العامين 1915 و1916.

وبدوره، توصل منصور رفعت، من مؤسسي الحزب الوطني المصري، وإن متأخراً، إلى القناعات نفسها. فوجد أن ألمانيا لا تلعب دوراً في تحرير بلاده، وأنها تدعم الدولة العثمانية في استعادة سيطرتها على مصر، هذا فضلاً عن محاولتها استغلال الوطنيين العرب في استراتيجيتها ضد دول الوفاق الودي. فانتقد ألمانيا علناً بأنها لا تبيع سوى الكلام.

وعلى صعيد الرأي العام العربي، فقد تأثر بالدعاية الألمانية، وساد شعور لدى بعضه بأن ألمانيا هي الدولة الوحيدة حليفة الإسلام، التي تعمل على إنقاذه من كبوته، وأضحى إمبراطور ألمانيا في نظر بعض المسلمين هو "الحاج محمد وليم"، الذي يدعو له المصلون بالنصر في مساجد دمشق ومصر. وسرت شائعات بأنه ابن السلطان عبد الحميد الثاني الذي أرسله والده سراً إلى برلين للدراسة، أو المنحدر من إحدى شقيقات الرسول والمتظاهر بالمسيحية كي تبقى قوته وسلطته على رعاياه. إن إعجاب عامة المسلمين بسياسة ألمانيا الإسلامية، جعلت بعضهم يتخيل إمكان أسلمة إمبراطور ألمانيا وشعبها والاستقواء بهم بدلاً من الاقتداء بنهضتهم. فاسترجعت صحيفة أبابيل البيروتية في 21 كانون الأول 1914 بمناسبة إهداء العاهل الألماني ثريا إلى ضريح السلطان صلاح الدين في العام 1898، وتمجيده له: "... هل إنه (وليم الثاني) افتتن بعلومه العسكرية وفنونه الحربية (أي صلاح الدين) ... أو إن جلالته وقف على أساس الدين الإسلامي المبين وأيقن إنه هو المنهج القويم والصراط المستقيم..."

4- سياسة ألمانيا العربية خلال الحرب العالمية الثانية: مفتي فلسطين والجهاد ضد الحلفاء

بعد الحرب العالمية الأولى، تولت السلطة في ألمانيا حكومة فايمر. وقد عملت على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين لأسباب تجارية، وكان لها موقف سياسي ينفي على العرب حقهم في فلسطين لعدم مساهمتهم في تنميتها واقتارهم إلى النضج السياسي لحكم أنفسهم بأنفسهم. كانت حكومة فايمر تريد التخلص من بنود معاهدة فرساي، فحاولت التقرب إلى اليهود بسبب نفوذهم في الولايات المتحدة وبريطانيا.

وبعد وصوله إلى السلطة في العام 1933 على أنقاض حكومة فايمر، نهج هتلر سياسة تقوم على توطيد سلطته في الداخل عبر الإعلان عن عدائه لليهود ومقاطعتهم اقتصادياً، وصولاً إلى طردهم إلى خارج البلاد، واستعادة زعامة ألمانيا في أوروبا. وبدت هذه التحولات في نظر الحركة العربية ذات أهمية كبرى لمستقبل المنطقة العربية، بعدما أصبحت الصهيونية عدواً مشتركاً لكل منهما. واعتقدت الحركة العربية بإمكان الاستفادة من ألمانيا للتخلص من السيطرة البريطانية والفرنسية على المنطقة.

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، كانت ألمانيا في تحالفٍ مع إيطاليا، والذي كان يتيح للأخيرة أن تمارس نفوذاً واسعاً على شرقي البحر المتوسط، باستثناء العراق، الذي كانت ألمانيا تتطلع إليه لوفرة نفطه. وقد استطاعت ألمانيا أن تحصل على تأييد لها في العراق ومصر. وبالنسبة إلى فلسطين، عملت على توجيه الهجرة اليهودية إليها عبر اتفاق اقتصادي ما عُرف بـ "اتفاق الترانسفير" أو "اتفاق هافارا" بالعبرية الذي استمر حتى العام 1941. وفي سياق سياستها العربية، استقبلت ألمانيا في العام 1937 موفداً من قبل مفتي فلسطين أمين الحسيني لدرس إمكانيّة التعاون بين الحركة العربية وألمانيا.

بعد اندلاع الحرب، وضعت ألمانيا استراتيجية لضرب بريطانيا في الشرق ومركز أعصابها في الهند، وقامت في النصف الأول من العام 1941 بدعم حركة رشيد عالي الكيلاني المناهضة لبريطانيا في العراق، وأجرت في الوقت نفسه اتصالات بالملك فاروق في مصر تحضيراً لانقلاب يقوم به ضد بريطانيا. لكن تراجع رومل عند العلمين في العام التالي، عطل كل هذه المخططات.

لقد تحمس الوطنيون العرب للانتصارات التي حققها الألمان في المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية. ففي بيروت، تشكلت "اللجنة القومية العربية" من بعض السياسيين العرب. واتصلت قياداتها بهتلر وموسوليني، وحضر بعضها إلى روما وبرلين متوقعاً الحصول على الدعم والوعد بالاستقلال. ومن بين هؤلاء مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، ورئيس وزراء العراق رشيد عالي الكيلاني. وقد اجتمع الحسيني إلى هتلر في تشرين الثاني 1941 وتحدث معه عن عدويهما المشترك، بريطانيا واليهود. فطالب الحسيني الحكومة الألمانية مراراً بإصدار تصريحات لصالح استقلال العرب بعد انتهاء الحرب. لكن ألمانيا كانت مقيدة باتفاقها مع إيطاليا حول شرقي المتوسط، وكانت لا تريد أن تسيء إلى علاقاتها بحكومة فيشي المتحالفة معها، والتي كانت تعتبر لبنان وسورية مناطق نفوذ تقليدية لها. من هنا، جاءت التصريحات الألمانية في شأن استقلال العرب بعد الحرب، غامضة أو متناقضة، أو غير وافية ولا تلبّي طموحاتهم.

إن غياب استراتيجية ألمانية واضحة المعالم تجاه أمني العرب بالاستقلال، كان وراء ضياع العراق من يد ألمانيا، وكل المشرق العربي، بعد قضاء بريطانيا على حركة الكيلاني في العراق، وما استتبعه من اجتياح سورية ولبنان في صيف عام 1941، وتراجع الملك فاروق عن انحيازه إلى جانب ألمانيا بعد معركة العلمين الثانية، وهذا ما جعل دبلوماسيين ألمان ينتقدون سياسة حكومتهم بعدم وضع استراتيجية شرق أوسطية تقوم على دعم القومية العربية. بدلاً من ذلك، عملت ألمانيا على مراعاة مطامع حليفها إيطاليا في المنطقة، ولم تتخذ موقفاً حاسماً يوقف الهجرة الصهيونية من ألمانيا إلى فلسطين.

وكما في الحرب العالمية الأولى، كذلك في الحرب العالمية الثانية، ظلت فكرة جهاد إسلامي لمصلحة ألمانيا، وفي صلب مخططات أوبنهايم. وفي 25 تموز 1940، أرسل مذكرة إلى مدير عام الخارجية الألمانية تتحدث عن تحريض العرب ضد بريطانيا في مصر وسورية

والعراق بالوسائل الدينية كافة، وتغذية الصراع بين العرب واليهود، لكن من دون أن يستعمل مصطلح الجهاد. ورأى أوبنهايم، أن هناك مهمتين تقعان على عاتق ألمانيا، وهما الحصول على المعلومات من المنطقة، وإثارة الثورات ضد بريطانيا في العراق ومصر وما جاورهما. أما الهدف المركزي، فكان تثبيت القوات البريطانية في أماكنها، وقطع النفط عن الأسطول البريطاني، وإقفال قناة السويس أمام الملاحة.

وفيما كان السلطان العثماني هو المحرك على الجهاد في الحرب العالمية الأولى، حلّ المفتي أمين الحسيني محلّه في الحرب العالمية الثانية. فأعلن الأخير الجهاد مرات عدة ضد بريطانيا واليهود. صحيح، أن هتلر لم ير حاجة إلى إعلان جهاد إسلامي ضد بريطانيا، على عكس بعض المقربين منه، إلا أنه لم يعارض ذلك، طالما أنه كان يساعد على تجييش المسلمين والعرب ضد الحلفاء. فإذاعة باري الإيطالية والإذاعات الألمانية كانتا تبتّان باستمرار تصريحات الحسيني حول الجهاد والمعادية لليهود. كما كان القسم العربي لإذاعة برلين برئاسة يونس البحري يستهل برامجه الصباحية بآيات من القرآن لجذب العرب والمسلمين. وعندما جند الألمان وحدات عربية وإسلامية للعمل في البلقان، وسلحوها ودرّبوها، وقاموا بتزويدها بالأئمة، الذين جرى إعدادهم في ألمانيا، بعث هاينريش هيملر قائد (Schutzstaffel) SS إلى مدير الدعاية جوزيف غوبلز (Göbbels)، يتحدث عن الجهاد والاستشهاد ويقول له: "أنا لست ضد الإسلام، فهو يعلم الناس ويعدهم بالجنة إذا ما حاربوا وماتوا. إنه دين عملي وجذاب بالنسبة إلى الجنود".

استنتاج

لقد استخدمت ألمانيا سلاح الجهاد في الحرب العالمية الأولى وجزئياً في الحرب العالمية الثانية، وفشلت في تحقيق مكاسب منه. لقد أعلن العرب "جهادهم" الخاص وثاروا على السلطنة العثمانية لمصلحة بريطانيا في سبيل إقامة دولة عربية مستقلة. وهذا يدل على أن مشاعر القومية العربية قد تغلبت على كل مضامين الرابطة العثمانية. إن دعم ألمانيا عودة الحكم العثماني إلى سورية ومصر بعد الحرب العالمية الأولى، وأن يكون شرقي البحر المتوسط منطقة نفوذ إيطالية بعد الحرب العالمية الثانية، أو حتى إصدار الوعود والتصريحات الكاذبة بذلك، كما فعل البريطانيون، كان وراء فشلها في استقطاب النخب العربية. لقد اكتفت ألمانيا باستقطاب الشخصيات العربية والإسلامية والتعامل معها كمصادر للمعلومات وأدوات للدعاية لا كحلفاء. ففي العام 1938، أراد إرسال زيارة برلين مجدداً، لكن وزارة الخارجية الألمانية رأت فيه شخصاً طاعناً في السن على المرء ألا يعطيه أكثر من حجمه.

وقد يكون العداء المشترك لليهود هو الذي حفّز العرب على السعي وراء ألمانيا. لكن ألمانيا سارت في سياسة معاكسة لما يشتهيها العرب. فمن خلال اضطهاد اليهود و"اتفاق الترانسفير"، أي نقل اليهود إلى فلسطين، ساعدت ألمانيا بشكل أو بآخر على صهيينة فلسطين.